الوحدة العلمية بين مصر وسورية

بقلم الدكتور ابراهيم حلمي عبد الرحمن

إن الوحدة السياسية التي تمت أخيراً بين مصر وسورية ممثلة في قيام الجمهورية العربية المتحدة والإجماع الكامل على اختيار رئيسها وقبول الشعب العربي وترحيبه بالوحدة لحادث من أحداث التاريخ يتوج جهوداً طويلة ويحقق الأماني التي طالما شغل بها العاملون على مقاومة الاستعمار الساعون إلى نهضة الشعب العربي وكرامته في عالم اليوم والغد . لاغرو إذن أن يكون حديث الرئيس جمال عبد الناصر الأول بعد إعلان نتيجة الاستفتاء موجهاً إلى الشباب لأننا نبني لليوم وللغد ، وسيكون البناء بأيد قوية فتية وعزائم صادقة ماضية متطلعة إلى مستقبل زاهر باسم ، لطريق إليه محفوفة بالمكاره والمكايد التي يكيدها لنا لطامعون المستغلون الحاقدون الحاسدون ، وممتلئة بالصعاب لتي هي من رواسب الماضي المستقرة في أنفسنا بفعل مني الاستعمار والاستغلال وما تحدثه في النفوس من نطباعات وآثار يكاد المرء مخلصاً لا يميزها التمييز الصحيح نحتاج إلى جهد شاق للتخلص منها .

* * *

من هذه الرواسب الاستعمارية القديمة في نفوسنا ، ظرتنا إلى اللغة العربية كأنها لغة لا تقوى على الحياة في ذا العصر ؛ ولذلك فنحن نتخذ من الفرنسية أو نجليزية أو غيرهما لغة للعلم ، ومنا الصادقون المخلصون ين يخشون على العلم والعلماء وينادون بالويل والثبور ، نحن لجأنا إلى لغتنا الأصلية القحطانية لغة للطب زراعة والكيمياء والهندسة . وحججهم في ذلك كثيرة مروفة ، ولكنها هي بذاتها الحجج التي عارض بها ستعمرون (والغيورون المخلصون المخدوعون) إدخال اللغة العربية في التدريس في المدارس الثانوية منذ أكثر من نصف قرن ، وسنسمعها دائماً ولا يملون ترديدها فيقولون : إن اللغة العربية تسيء إلى المستوى العلمي (وخاصة لطلبة الطب) فضلا عن ندرة المراجع العلمية باللغة العربية وفوضى المصطلحات وتباينها ، ثم يختمون حججهم بدعوة صالحة وابتسامة رائعة عن التعصب وأضراره والتسامح ومنافعه والروح العالمية التي لا مكان لغيرها في محراب العلم ولا في نفوس سدنته الأبرار ؛ وهكذا نبقى ندور حول أنفسنا ونلعب لعبة المستعمر بكل براءة وطهارة .

إن سورية قالت قولتها الفاصلة في هذا الشأن منذ سنين عند ما قررت اللغة العربية لغة للتدريس في الجامعة السورية بمعاهدها في دمشق وحلب . وأظن أن مصر ستفيد من هذه الخطوة الكريمة الصحيحة ، وسيكون النهوض باللغة العربية من بين الثمار الأولى للوحدة المباركة ؛ فالقوم في دمشق لا يستخدمون إلا اللغة العربية ولا يتشدقون بالألفاظ الأعجمية ولا يستخدمونها في أعمالهم التجارية ولا في حياتهم المنزلية أو الترويحية ولا يطلقون الكلمات الدخيلة على محالهم ومتاجرهم ومقاهيهم كما نفعل اليوم .

إننا بإهمالنا اللغة العربية ، إنما نهمل أنفسنا ونحتقر أنفسنا ونقدم تلك اللغة الكريمة قرباناً على مذبح الاستعمار ، ثم يقف المخلصون منا يطلقون البخور ويرتلون الأدعية الممتلئة بالنيات الحسنة في قالب اليأس والقنوط .

والأمر كما قيل يحتاج إلى قرار حاسم وتنفيذ حازم .

عشرات اللغات الشرقية والغربية يدرس بها العلم في الجامعات في مختلف أنحاء العالم .

المراجع والمصطلحات يجب إعدادها وستعد .

ولكن الذى نبغى الآن من جمهوريتنا المتحدة هو العزم الصادق والقول الفاصل والعمل الحاسم للتخلص من أثر من آثار الاستعمار الغاشم .

* * *

كانت الوحدة السياسية تتويجاً لجهود كثيرة بذلت من قبل .

ومن هذه الجهود التى بذلت منذ سنوات جهود العلماء المصريين لإحداث وحدة وتعاون بين العلماء العرب .

فمنذ تسعة أعوام ، عملت الجامعة العربية على إقامة تعاون علمى بين البلاد العربية ، والذى يرجع إلى مقررات اللجنة الثقافية للجامعة العربية يجد المقترحات الأولى فى هذا الشأن التى بحثت فى اجتماع دمشق عام ١٩٤٧ والتى كانت من صياغة المرحوم الدكتور على مصطفى مشرفة . بحثت هذه المقترحات فى اجتماعات متتالية وتعهدها خاصة المرحوم الدكتور أحمد أمين حينما كان يلى أمور الثقافة فى جامعة الدول العربية ، حتى انتهى الأمر إلى عقد أول مؤتمر علمى عربى فى الإسكندرية عام١٩٥٣ ، وقرر المجتمعون إنشاء اتحاد علمى بين العلماء العرب . يجمع شملهم ويوحد كلمتهم ويقيم ندوتهم للبحث والمدارسة ومتابعة التقدم العلمى فى العالم ، وقد استقر الرأى على أن يكون الاتحاد العلمى العربى ذا شعب فى البلاد العربية ، وأن تحمل الشعبة المصرية اسم الاتحاد العلمى المصرى ، والشعبة السورية اسم الاتحاد العلمى السورى ، والشعبة العراقية اسم الاتحاد العلمى العراقى ، وهكذا .

واتفق على ألا تكون الاتحادات العلمية حكومية ، بل شعبية منبثقة من صميم العلماء أنفسهم قائمة على أفرادهم وإن كانت تقبل معونة الدولة دون تدخل أو توجيه .

ثم عقد المؤتمر العلمى العربى الثانى فى القاهرة فى عام ١٩٥٥ ، وأخيراً عقد المؤتمر العامى العربى الثالث فى لبنان فى عام ١٩٥٧ والنية متجهة إلى عقد المؤتمر العلمى الرابع فى دمشق الفيحاء عام ١٩٥٩ . وقام الاتحاد العربى منضمة إليه الشعب المصرية والسورية والعراقية والأردنية واللبنانية ، ويتصل به ممثلون للعلماء فى الدول العربية الأخرى التى لم تتكون بها شعب كاملة بعد .

كان من الطبيعى أن تكون هناك وحدة وليس اتحاداً بين علماء مصر وسورية ؛ ولذلك اجتمع مجلس إدارة الاتحاد العلمى المصرى فى القاهرة فى ٨ من فبراير سنة ١٩٥٨ وقرر هذه الوحدة ، كما اختار وفداً من خمسة من أعضائه للسفر إلى دمشق للعمل على إقامة الوحدة مع الاتحاد العلمى السورى ، وكان من أعضاء هذا الوفد عالم فى النبات وعالم فى الزراعة وعالم فى الهندسة وعالم فى الطب وكاتب هذا المقال ، فجمع الوفود ممثلى الفروع العلمية الرئيسة من زراعية وطبية وهندسية وأساسية وذرية . وقضى الوفد فى دمشق ثلاث ليال سويًّا ، وأنهى أعماله بنجاح فى خلال عشرة أيام لا تزيد من يوم أن تقرر الأمر وعقد العزم .

* * *

إن الذى يسافر إلى دمشق بالطائرة يمر على بيروت أولا ، وبيروت تبدو لمن يراها من الجو غانية مخططة المعالم ، رمالها الحمراء متداخلة مع لون المياه الزرق ومبانيها البيض وأحراجها الخضر كأنها رقعة ملوّنة تجذب الأنظار ، ممتدة على الشاطئ فى استرخاء وإن كانت تنظر إلى الجبل الحانى عليها نظرة من يريد الفرار .

أما دمشق فلا يصل إليها المرء إلا بعد أن يجتاز طائراً قمم الجبال البيضاء المغطاة بالثلوج ويهبط إلى وادى البقاع ، ثم يرتفع مرة أخرى إلى قنن تهبط به ثانية إلى وادى بردى فيجد دمشق وسط واحة كبيرة فى الصحراء ، معقلا من معاقل البيداء ، بها المآذن الطولى والقباب تمتد من النهر إلى سفح قسيون امتداد الرابض اليقظان ، حتى إذا هبطنا المزة ولقينا الإخوان وجسنا خلال دمشق وتحدثنا إلى ساكنيها ، رجعتنا الذكريات إلى صور من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الماضى خالدات ودفعتنا الأمانى إلى صور للمستقبل زاهرات .

أما الماضى الخالد ، فهو ماضى الإنسانية كلها فى لفظتين (القاهرة ودمشق) ، هو الماضى الذى يمتد إلى خمسة آلاف عام من المدنية والتحضر ، والذى يتصل عبر القرون بالرومان والأمويين والمماليك وغيرهم ، حتى يهبط فى ظلام الأتراك وفى جحيم الاستعمار الغربى ليخرج إلى شاطئ الأمان ومعقل الرجاء فى ثورة مصر وسورية وقيام الجمهورية العربية المتحدة .

إن الذين لم يصلوا إلى الشاطئ بعد ، أو الذين لم يسيروا فيه خطوات ، يحدثوننا عن جحيم الاستعمار كأنه الحياة التى لا حياة غيرها لنا ، ويرون فيها بديلاً أفضل من دفء الشاطئ المجهول ، وإنهم ليشبهون فى هذه الحال العبد الذى يخشى الحرية ويطمئن إلى الرق فى ظل السيد أكثر من اطمئنانه إلى المستقبل المجهول ! إن دمشق لتبعث فى زائرها الثقة والطمأنينة ، تلك الثقة المستمدة من الماضى الخالد والحاضر العامل والمستقبل الزاهر . وهى مدينة قديمة وفيها المعالم الحديثة ، جامعها الأموى الكبير به نقوش المسيحية الأولى وما ذنها المتسامقة وقبابها المستديرة ، وأسواقها المسقوفة ، وشوارعها المتداخلة ، وأفرع بردى الحارية ، وطرز المبانى العربية ، ولباس الناس ولهجاتهم وتحياتهم عند اللقاء والفراق ، كل هذه صور إذا شهدتها معاً ارتاحت إليها نفسك ، وشعرت بالرضا والثقة والألفة ، فكأنك حللت فى بيتك ولقيت أهلك ، فلا غانية ولا غوانى ، إنما جلال ووقار .

* * *

تحدث العلماء المصريون فى الجامعة السورية فى يومى السبت ١٥ من فبراير سنة ١٩٥٨ والأحد ١٦ من فبراير سنة ١٩٥٨ وكان محور الحديث مظاهر التقدم العلمى فى مصر وسورية خاصة وفى العالم عامة ، وما ينبغى أن يكون عليه التعاون بين العلماء فى الدولة المتحدة ، وكان الحديث صريحاً كل الصراحة ؛ فالعلم لدينا فى مصر وسورية لم يقدر بعد حق قدره ، ولم تفد منه الدولة بعد الفائدة المرجوة ، والمشتغل بالبحث العلمى لا تهيأ له وسائل العمل ، وتضيق أمامه سبل الرزق ، تلك السبل التى تتسع أمام غيره من المشتغلين بغير الأبحاث . فالذى يدخل محراب العلم يحارب مرتين ، مرة بضيق الرزق ومرة بصعاب العمل ، فلا يأخذ نصيبه من الدنيا ولا ترضى نفسه .

ولمصلحة من هذا كله ؟ أللدولة ؟ الجواب طبعاً : لا ؛ لأن الدولة تريد البحث العلمى .

أرجال الأعمال والتجارة والإدارة ؟ الجواب طبعاً لا ؛ لأن العلماء لا يشاركونهم فى الرزق ، وإنما يساعدونهم على رواج التجارة والزراعة والصناعة وسؤدد الدولة .

لمصلحة من إذن يبقى العلماء من الباحثين المبتكرين قلة مستضعفة ، يلذ للجهلاء التندر بها والإقلال من شأنها وإحداث كل مضايقة لها ؟ لمصلحة من يحدث هذا كله ؟ .

ولمصلحة من أننا لانجد معاهد البحوث العلمية التطبيقية تنشأ فى كل موضوع ؟ ولمصلحة من أن تكون صناعاتنا متأخرة متخلفة ؟ ولمصلحة من أن تكون ثرواتنا المعدنية مطمورة لا تكشف ؟ ولمصلحة من أن تسيل المياه دون أن تعقل وتولد منها الكهربا ؟ ولمصلحة من أن نترك الثروة السمكية فى بحارنا الواسعة والبترول فى صحارينا الشاسعة الأطراف ؟ بل لمصلحة من أن ينشأ الشباب منا ينطقون بالرطانة ورءوسهم ممتلئة بصور الخلاعة الغربية وينصرفون عن الدراسات العلمية العملية إلى اللفظيات الممطوطة والفقهيات الشكلية ؟

إن الدول الحديثة الناهضة تقوم على العلم .

والعلم يقوم على العلماء ومعاهد البحث العلمى والتطبيقى

والنهضة تتأكد بالصلة القوية بين نتائج البحث

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكن الذى نبغى الآن من جمهوريتنا المتحدة هو العزم الصادق والقول الفاصل والعمل الحاسم للتخلص من أثر من آثار الاستعمار الغاشم .

* * *

كانت الوحدة السياسية تتويجاً لجهود كثيرة بذلت من قبل .

ومن هذه الجهود التى بذلت منذ سنوات جهود العلماء المصريين لإحداث وحدة وتعاون بين العلماء العرب .

فمنذ تسعة أعوام ، عملت الجامعة العربية على إقامة تعاون علمى بين البلاد العربية ، والذى يرجع إلى مقررات اللجنة الثقافية للجامعة العربية بجد المقترحات الأولى فى هذا الشأن التى بحثت فى اجتماع دمشق عام ١٩٤٧ والتى كانت من صياغة المرحوم الدكتور على مصطفى مشرفة . بحثت هذه المقترحات فى اجتماعات متتالية وتعهدها خاصة المرحوم الدكتور أحمد أمين حينما كان يلى أمور الثقافة فى جامعة الدول العربية ، حتى انتهى الأمر إلى عقد أول مؤتمر علمى عربى فى الإسكندرية عام١٩٥٣ ، وقرر المجتمعون إنشاء اتحاد علمى بين العلماء العرب يجمع شملهم ويوحد كلمتهم ويقيم ندوتهم للبحث والمدارسة ومتابعة التقدم العلمى فى العالم ، وقد استقر الرأى على أن يكون الاتحاد العلمى العربى ذا شعب فى البلاد العربية ، وأن تحمل الشعبة المصرية اسم الاتحاد العلمى المصرى ، والشعبة السورية اسم الاتحاد العلمى السورى ، والشعبة العراقية اسم الاتحاد العلمى العراقى ، وهكذا .

واتفق على ألا تكون الاتحادات العلمية حكومية ، بل شعبية منبثقة من صميم العلماء أنفسهم قائمة على أفرادهم وإن كانت تقبل معونة الدولة دون تدخل أو توجيه .

ثم عقد المؤتمر العلمى العربى الثانى فى القاهرة فى عام ١٩٥٥ ، وأخيراً عقد المؤتمر العلمى العربى الثالث فى لبنان فى عام ١٩٥٧ والنية متجهة إلى عقد المؤتمر العلمى الرابع فى دمشق الفيحاء عام ١٩٥٩ . وقام الاتحاد العربى منضمة إليه الشعب المصرية والسورية والعراقية والأردنية واللبنانية ، ويتصل به ممثلون للعلماء فى الدول العربية الأخرى التى لم تتكون بها شعب كاملة بعد .

كان من الطبيعى أن تكون هناك وحدة وليس اتحاداً بين علماء مصر وسورية ؛ ولذلك اجتمع مجلس إدارة الاتحاد العلمى المصرى فى القاهرة فى ٨ من فبراير سنة ١٩٥٨ وقرر هذه الوحدة ، كما اختار وفداً من خمسة من أعضائه للسفر إلى دمشق للعمل على إقامة الوحدة مع الاتحاد العلمى السورى ، وكان من أعضاء هذا الوفد عالم فى النبات وعالم فى الزراعة وعالم فى الهندسة وعالم فى الطب وكاتب هذا المقال ، فجمع الوفود ممثلى الفروع العلمية الرئيسة من زراعية وطبية وهندسية وأساسية وذرية ، وقضى الوفد فى دمشق ثلاث ليال سوياً ، وأنهى أعماله بنجاح فى خلال عشرة أيام لا تزيد من يوم أن تقرر الأمر وعقد العزم .

* * *

إن الذى يسافر إلى دمشق بالطائرة يمر على بيروت أولا ، وبيروت تبدو لمن يراها من الجو غانية مخططة المعالم ، رمالها الحمراء متداخلة مع لون المياه الزرق ومبانيها البيض وأحراجها الخضر كأنها رقعة ملونة تجذب الأنظار ، ممتدة على الشاطئ فى استرخاء وإن كانت تنظر إلى الجبل الحانى عليها نظرة من يريد الفرار .

أما دمشق فلا يصل إليها المرء إلا بعد أن يجتاز طائراً قمم الجبال البيضاء المغطاة بالثلوج ويهبط إلى وادى البقاع ، ثم يرتفع مرة أخرى إلى قنن تهبط به ثانية إلى وادى بردى فيجد دمشق وسط واحة كبيرة فى الصحراء ، معقلا من معاقل البيداء ، بها المآذن الطولى والقباب تمتد من النهر إلى سفح قسيون امتداد الرابض اليقظان ، حتى إذا هبطنا المزة ولقينا الإخوان وجسنا خلال دمشق وتحدثنا إلى ساكنيها ، رجعتنا الذكريات إلى صور من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما الوزارات والمصالح الحكومية التى تباشر وظيفة الحكومة قِبَل الشعب، فعليها هى الأخرى أن تعنى بالجانب التنظيمى من عملها فتعد الإحصاءات الصحيحة، ولا تكتفى بالمذكرات اللفظية، وتراجع الوقائع والمقدرات وتجرى المقارنات، وتنظر إلى اختصاصها نظرة قومية شاملة؛ لأن الحكومة ليست منفصلة عن الشعب، وحكومتنا ليست حكومة مؤقتة — هى اليوم فى الحكم وغداً خارجه — بل هى حكومة ثورية تتابع سياسة ثابتة، وتحمل أعباء محددة واضحة تجاه الشعب كله؛ ولذلك فكل وزارة أو مصلحة أو إدارة حكومية يجب أن تنظر إلى اختصاصاتها قبل الشعب مثل تلك النظرة الشاملة الدائمة الهادفة، فلا يكتفى كبار الموظفين بتأدية الأعمال اليومية وتنفيذ القوانين المرعية وكتابة التقارير السنوية. بل عليهم أن يتلمسوا أسباب القصور، ويعملوا على ملافاتها، وينقبوا عن وسائل التحسين والتجديد، ويعملوا على تطبيقها ويلاحظوا مظان الخلل ومواطن الضعف ليعالجوها، حتى يصبح كل موظف فى الدولة مشتركاً فى جبهة التقدم الأمامية، وليس قابعاً فى الخطوط الخلفية تاركاً السلاح والصراع لغيره.

وقد تم إنشاء وحدات بحوث فى الوزارات العملية فى الإقليم المصرى وفقاً للقرار الجمهورى الذى صدر بناء على توصية المجلس الأعلى للعلوم فى القاهرة، والمأمول أن تحقق هذه الوحدات بعد استكمالها الأغراض المرجوة منها كاملة.

* * *

والصناعة فى الجمهورية المتحدة وكذلك الزراعة والتجارة والمواصلات والمناجم والتعدين والبترول وتوليد الكهربا ومقاومة الأمراض وتنظيم التغذية والإسكان، كلها موضوعات هامة يجب أن تعدلها الخطط العلمية المنسقة من إطار السياسة العامة للدولة.

وقد نشأنا جميعاً وتعودنا أن ننظر إلى الخارج حينما نريد تنظيم أمورنا أو تحسين مرافقنا، على حين أن الأصلح الآن أن نعمل على الاقتران والتعاون الوثيق العربى بين معاهدنا العلمية ومواردنا البشرية والذهنية الممتازة وبين المشتغلين منا بتنمية الموارد الاقتصادية والصناعية والزراعية، فنزيل بذلك تلك الفرقة التى أوجدها المستعمر فينا، حتى أضعف ثقة كل منا فى الآخر وجعلنا جميعاً نتطلع إلى الخارج ولا يجد أحدنا العون عند أخيه.

وقد عبر العلماء المصريون والسوريون الذين اجتمعوا فى المركز الثقافى العربى فى دمشق مساء الاثنين ١٧ من فبراير سنة ١٩٥٩ عن رغبتهم فى إحداث تعاون مثمر بين النواحى العلمية والنواحى العمرانية تمكيناً للدولة الحديثة من النهوض القوى السريع بإذن الله، وعلينا جميعاً — كل فى ناحيته — أن يعمل على تحقيق هذا الغرض.

وقد تأكد لى ذلك من زيارتى للسيد رئيس مؤسسة الإنماء الاقتصادى فى سورية وأعضائها حينما اتضح لنا أن مشروعات سورية الكبرى تشمل بناء خزانات للمياه على نهر الفرات وتوليد الكهربا منها، ومد خط طويل للسكك الحديدية من القاشلى شرقاً حتى اللاذقية غرباً، واستصلاح أراض واسعة، وإنشاء ترع للرى والصرف واستزراعها، والكشف عن منابع البترول فى الجزيرة، وعن الثروات المعدنية فى صحارى سورية وجبالها. وهذه كلها مشروعات لدى المصريين خبرة واسعة فيها، وفيهم الإخصائيون العالميون فى شئونها، كما أن الخبرة السورية فى الشئون التجارية معلومة ومشهورة فى العالم كله، مما يبشر بإمكان التعاون العلمى المثمر المفيد بإذن الله بين الإقليمين فى هذه المجالات وغيرها.

ملاحظة أخيرة: حينما زرت كلية العلوم بدمشق وتحدثت إلى طلابها وأساتذتها، وسألت عن تدريس الجيولوجيا وعدد المتخرجين فيها، تبين لى أن هذا القسم هو أصغر أقسام الكلية والعناية بخريجيه قليلة حتى إن أغلبهم يتجه إلى التدريس فى المدارس الثانوية.

هذا فى الوقت الذى تحتاج فيه سورية إلى مئات الخبراء فى الجيولوجيا، أكثر من حاجتها إلى الآلاف المؤلفة من دارسى الآداب والحقوق التى تعج بهم الجامعة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يذكرنى هذا بما حدث من قبل فى كليه العلوم بجامعة القاهرة منذ أكثر من ثلاثين عاماً حينما كان الأساتذة الأجانب يملئون الكراسى فى الجامعة . فكانوا حرباً على كل طالب يريد أن يدرس الجيولوچيا أو أن يبحث عن ثروات البلاد المعدنية ، حتى أصبح قسم الجيولوچيا ضامراً ، ولولا خشيتهم من إغلاقه كلية لطردوا كل من فيه.

هل هذا توافق خواطر فى تدريس الجيولوچيا بين مصر وسورية؟

* * *

نعم إنه توافق خواطر

خواطر المستعمر الذى كان جاثماً على صدورنا فى قصر الدوبارة ودار المفوض السامى .

والآن بعد أن طردنا المستعمر وسرنا فى طريق الاستقلال والبناء والتطهير سيكون للعلم والعلماء فى الجمهورية العربية المتحدة الناهضة دورهام فى بناء الدولة متعاونين متكاتفين مع باقى الهيئات الشعبية والحكومية دون انفصال أو من أو استعلاء والله الموفق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com